حكايتي مع التعليم

ريم الخواجا

كنت أحلم، وأنا طالبة صغيرة في المدرسة، أن أكون معلمة، مع أنني كنت متفوقة، وبإمكاني أن أتخصص أي تخصص آخر. كنت دائماً أحلم أن أكون عنصراً فعالاً، وأقوم بتغيير نظرة المجتمع السيئة إلى المعلم. كانت تدخل المعلمة إلى صفي الذي يعتبر صفاً مشاغباً ومشاكساً وتبدأ في سمفونية «يا ريتني متت قبل ما أصير معلمة»، أو «غلطة عمري إني فكرت أصير معلمة»، أو «جنيت على عمري لما قررت أصير معلمة».

كل هذه العبارات كانت تثير استغرابي وأسفي؛ هل تراجع دور المعلم في المجتمع إلى هذه الدرجة؟ هل مهنة المعلم التي كانت أشرف مهنة على الأرض، أصبحت بهذه الدرجة التي تشعر صاحبها باليأس من مهنته؟ كنت مقتنعة دائماً أن السبب في هذا هو المعلمة التي لا تستطيع ضبط الصف! وهي المسؤولة عن مهنتها، ويمكنها أن تغير حياتها بيدها وتجعلها أفضل وأجمل مهنة. وكنت أتساءل عندما أتخيل نفسي معلمة، هل سيحدث ذلك؟ أجيب عن نفسي: لا. سأكون معلمة مختلفة. سأحترم مهنتي، واحترم واجباتي المدرسية، وسأحترم طلبتي، وباحترامي لمهنتي سأجعل احترامها فرضاً على الناس، سأجعلها المهنة التي يتمناها الناس.

في ذلك الوقت، كنت أعتقد أن دور المعلمة سيكون فقط مع طلبتها، وهي المسؤولة عن كل شيء، وهي التي تقرر كل شيء. لم أرَ في ذلك الوقت علاقتها مع المديرة، أو المواصلات، أو الراتب، أو القوانين. لذلك، كنت أعتقد أن هذه المعلمة تبالغ في التذمر؛ لأنه بمجرد عدم تدريس صفي ستكون مشكلتها قد انتهت، وقد كنت مخطئة في رأيي هذا طبعاً.

كان من حولي يسألونني وبإلحاح، ما هي المهنة التي سأمتهنها في المستقبل؟ وكانوا يجيبون عن تساؤلاتهم دون تردد: أكيد دكتورة. كنت أجيبهم دكتورة ومعلمة، لأنني أحب أن أكون دكتورة تقديراً لمعدلي ولتفوقي فقط، ولكن من أعماقي، أحب أن أكون معلمة؛ لأنها المهنة التي أتخيل نفسي فيها فعلاً.

جاء وقت الحسم ووقت تقرير المهنة فعلاً بعد نجاحي في التوجيهي. تعددت الآراء والقناعات، ولكن ما كان يحيرني فعلاً في ذلك الوقت هو هل أصبح معلمة؟ وأقوم بدفن نفسي، كما يقولون لي أم أتخصص هندسة حاسوب التي كانت تستهويني في ذلك الوقت، في النهاية قررت أن أكون معلمة، ولكن معلمة ماذا؟ رياضيات أو لغة إنجليزية، وكلتاهما صعبة وفيها تحدٍ للمادة وللطلبة. فكرت وترددت وقررت وقمت بتقديم طلب لدراسة الرياضيات، وتم قبولي في ذلك بسرعة.

أصبحت طالبة جامعية، وسمعت كلمات من حولي: «لا أعرف ما الذي رماك في هذا التخصص؟»، «لا أعرف ما الذي دفعك لدفن نفسك لتكوني معلمة»، «أنا أكره معلمات الرياضيات، ولكنني

أحبك طبعاً»، «كوني رحيمة مع الطلبة في الرياضيات وزيديهم علامات»، «احذفي لهم نصف الكتاب حتى يحبوك»، «هذا تخصص صعب لن تصمدي به طويلاً، دخله الكثيرون وقاموا بالتحويل، حولي تخصصك بسرعة». فالإحباطات متعددة، ونصائح بالجملة بأن أغير مجال تخصصي، السبب الأول لأنني سأكون معلمة، والسبب الآخر لأنني سأكون معلمة رياضيات، وهذه المادة يكرهها معظم الطلاب ويكرهون مدرسيها، ومدرسها لن يرى السعادة أبداً. وكانوا دائماً يقولون لي إن مهنة المعلم مهنة مملة، وهي قائمة على التعب والكلام وشرح الدروس دون أي تقدير من الطلاب. كنت أدافع عن آرائي بكل ثقة، وبأنني سأكون مدرسة رياضيات مختلفة، وكنت أنتظر اللحظة التي سأتخرج فيها وأكون فيها معلمة، على الرغم من أنني كنت مقتنعة تماماً بما يقولون بأنني سأواجه التعب في حياتي في هذه المهنة من دون تقدير.

تخرجت من الجامعة، وعندما اتّصلت بي التربية كي أستلم الوظيفة انتابتني مشاعر عدة؛ الفرح لأنني قد وصلت لتحقيق هدفي، والخوف من أنني هل سأكون أهلاً لحمل المسؤولية.

عند وصولي إلى التربية، عرفت المدرسة التي سأعمل فيها، كانت بعيدة جداً، فلم أسمع بها من قبل، أصبت بأول خيبة أمل لأنني سأضطر للخروج إلى العمل الساعة السادسة صباحاً؛ أي أنني سأكون مثل العامل تماماً، قلت لنفسي: «هذه البداية فقط» وأكملت الطريق.

عند وصولي للمدرسة، كنت أسمع دقات قلبي، وكنت أتساءل: هل سأنجح؟ هل سأكون أهلاً للمسؤولية؟ ماذا سأقول؟ كيف سأبدأ؟ وأسئلة كثيرة كانت تدور بخاطري. وصلت إلى مكتب المديرة وعرفتها على نفسي واستقبلتني جيداً، تسلمت جدول الحصص والمواد التي سأدرسها، كنت سعيدة؛ لأن المرحلة التي سأدرسها هي المرحلة التي أحبها، وكذلك سأدرس مادة تخصصي.

عند دخولي الصف العاشر (أ) للمرة الأولى كانت دقات قلبي تضرب بقوة؛ لأنني للمرة الأولى أقف في موقع مسؤولية؛ ولأنني أعرف أن الطالبات في هذه السن يتصرفن تصرفات مزعجة، ولكن حالما بدأت الكلام مع الطالبات والتعرف إليهن، شعرت بارتياح كبير، وأنني أعرفهن منذ زمن طويل، وانتهت الحصة على خير. ثم ذهبت إلى غرفة المعلمات للمرة الأولى، وهناك تعرفت عليهن، وعلى مكان جلوسي، فكان جميلاً جداً، وكانت المعلمات لطيفات للغاية معي، وأكملت نهاري. في اليوم الثاني، أحببت المدرسة أكثر؛ فالطالبات هادئات وجميلات وأحببنني وأحببتهن، وكذلك المعلمات وكل طاقم المدرسة، وتمنيت أن أبقى في تلك المدرسة طوال حياتي.

على الرغم من بعد المدرسة، وقضاء 4 ساعات في الطريق ذهاباً وإياباً، لم أمكث في تلك المدرسة إلا أسبوعاً، وانتقلت إلى مدرسة أخرى، أيضاً كانت بعيدة جداً، بقيت فيها فصلاً كاملاً، ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى وأخرى، وفي كل تلك المدارس درست أعلى مرحلة في المدرسة، وكنت سعيدة جداً بذلك، لأنني أتعامل مع طلاب من جيلي تقريباً، فكنا مثل الأصدقاء، وكنت أنتظر نتائجهم ونتائج التوجيهي بفارغ الصبر، وكأنني أنا من يقدم الامتحانات. واستوقفني كلام أحد طلابي فقال لي: «إن كل المعلمين غير سعيدين، وسألني هل أنت سعيدة في مهنتك؟ فقلت له: «نعم أنا سعيدة»، ويبدو أن هذه الإجابة أثارت استغرابه بشدة؛ لأنها على غير العادة مما يسمع من الآخرين.

عندما أدخل الصف لأول مرة أضع قوانيني التي أريدها، والتي أحب أن تكون في صفي من أدب، والتزام، وتحضير، وحل للواجبات، وأؤكد أن أي تهاون سيعرضهم لما لا يحبونه وأكون صارمة في البداية، ولكن دون عنف، وبكل احترام. بعد ذلك، ومع الأيام، أصبحت صديقة للطالبات، لأن كلاً منهن عرفت حقها وواجبها، فالتزمت به ولا بأس من إدخال النكات أو القصص أثناء الشرح للدرس، ولا بأس من التعليق على كلمة معينة قالتها طالبة أو تصرف تصرفه طالب، وكذلك لا بأس من المباركة لطالبة على لباس جديد، أو تسريحة شعر مميزة ومرتبة، كما لا بأس من وعد الطالبات بنزهة قريبة من المدرسة لتناول الفطور، إذا كانت علاماتهن مرتفعة في امتحان معين.

إن هذه الكلمات لها الأثر الكبير على نفس الطالب، وتزيده حباً لنفسه وللمعلمة وللمادة. إن إطراء الطالب له الأثر الكبير على نفسه؛ فأذكر مرة أنها أعجبتني إجابة طالبة في الحصة فقلت للصف: «إن هذه الطالبة تعجبني كثيراً، هي ملكة الرياضيات»، هي مجرد جملة قلتها. ولكن أمها بعد أيام قالت لي إن هذه الطالبة أصبحت تتغنى بالرياضيات في البيت وتحبها كثيراً.

كذلك يجب الاهتمام بكل الطلبة بالمستوى نفسه، وعدم إهمال أحدهم، حتى لو كان ذلك من دون وعي. فأذكر مرة أنني سألت سؤالاً وقد شارفت الحصة على الانتهاء، وأنا عادة أخذ معظم إجابات الصف، فسمعت تقريبا 7 طالبات، وكانت هناك طالبة ترفع إصبعها بإلحاح ولكنني قلت: تكفي الإجابات التي سمعتها لأنها متشابهة، فقالت لي بابتسامة وبراءة: «كل ما بييجي دوري بتقولي بكفي»، فابتسمت وقلت لها كل الإجابات واحدة، والحصة ستنتهي الآن، وعندما تذكرت ما حدث في الحصة كان معها حق؛ لأن ذلك حدث تقريباً ثلاث مرات في تلك الحصة مع الطالبة نفسها، ولكن ذلك لم يكن بوعي مني، فأنبني ضميري لذلك وأصبحت انتبه لهذه النقطة أكثر.

مع الأيام، بدأت أشعر بالتعب والإرهاق والملل؛ لأن المواصلات أصبحت مرهقة جداً، فأنا أقضي الوقت واقفة على قدمي في انتظار السيارات، وفي الطريق أقضي أربع ساعات ذهاباً وإياباً، وأصبحت لحظة الصحو من النوم في وقت مبكر جداً مثل الكابوس، وأصبحت انتظر العطل، مع أنني لم أكن أحبها أبداً في البداية. وأصبح المنهاج هو نفسه لا يتغير، ومن هنا أتى الملل بسبب الروتين.

الآن انتقلت إلى مدرسة قريبة نوعاً ما من مكان إقامتي، ولكنها بعيدة في الوقت نفسه، لأن مواصلاتها بعكس سير مواصلاتي، وأحياناً يكون الوصول إليها مستحيلاً، وأنا أعلّم مرحلة ابتدائية ومواد مختلفة، مع أن ما يسعدني هو تدريس مادة تخصصي وتدريس مرحلة عليا. لم أكن أتصور بأنني سأشعر بالملل من التدريس كما أشعر به الآن، ربما لأننا في نهاية الفصل وتعبنا، وأصبحت أفكر بأن من كانوا ينصحوني بتغيير تخصصي والعمل بأي وظيفة أخرى غير التعليم كانوا على حق، فبدأت بالتفكير والبحث عن وظيفة أخرى.

ولكنني أغير رأيي بسرعة، لأنني أشعر بأنني قد خلقت لأكون معلمة، وليس لأكون شيئاً آخر. وبعد التفكير والتأمل ملياً في ذلك، وجدت أن المعلم هو ليس الوحيد الذي يمل من وظيفته، فالمهندس يمل من مهنته، وكذلك الطبيب والسكرتير والسائق والبائع، حتى الصحافي الذي يواكب تغييرات وتجديدات كثيرة في مهنته. بل على العكس، أنا أعتبر أن حياه المعلم فيها التجديد الكثير؛ فترة تدريس، امتحانات، عطل، مراقبة، تصحيح، والتجديد الأكبر أن المعلم يتعرف كل عام على صف جديد وأشخاص جدد بتصرفات وأفكار ونفسيات مختلفة.

أجد أنها المهنة الأجمل من بين المهن الأخرى، ودائماً أحاول تطوير نفسي وأفكاري وأساليبي؛ لأنني أحب التجديد وأحب التغيير والتطوير حتى لو كنت أعمل داخل مدرسة.

أنا الآن أقولها، وبصوت مرتفع: أنا سعيدة لأنني معلمة، وقد حققت ما كنت أصبو إليه على الرغم من التعب والإرهاق الذي أشعر بهما أحياناً، لأن تحقيق نتائج إيجابية بعد التعب، يشعرك بالسعادة فعلاً.

ريم الخواجا
مدرسة دير قديس الأساسية للبنات

جانب من حفل الاستقبال الذي نظمته المؤسسة على شرف عبد المحسن القطان.